مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين .الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين . إياك نعبد و إياك نستعين . اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم . غير المغضوب عليهم ولا الضالين . آمين .

والحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب . ولم يجعل له عِوَجاً . قَيِّماً لينذر بأساً شديداً مِنْ لَدُنْهُ . و يبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً ما كثين فيه أبداً .

هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله . وكفى بالله شهيداً . محمد رسول الله . والذين معه أشِـدَّاء على الكفار رُحماء بينهم . تراهم رُكَّعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً . سيماهم فى وجوههم من أثر السجود .

بعث الله النبيين مبشرين ومنذرين . وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه . وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم . فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه . والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

أشهد أن لا إله إلا الله . وحده لا شريك له . أسبغ النعمة . وأجزل المنة . بما والى على عباده من رحماته . و بما أقام لهم على مفارق الطرق من واضح آياته . و بما هداهم به إلى التى هى أقوم ــ فى العقيدة ، والشريعة ، والعلم ، والعمل ــ من محكم كتابه وآياته . ليهلك من هلك عن بينة و يحيى من حَيَّ عن بينة . و إن الله لسميع عليم .

وأشهد أن أفضل خلق الله ، وأهداهم إليه سبيلا ، وأثبتهم على الصراط

المستقيم قدماً ، وأحقهم بالإمامة والقدوة ، وأجدرهم بالاتباع : عبد الله الكريم ورسوله العظيم ، محمد الصادق الأمين . صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، الذى اختاره الله واصطفاه ـ (والله أعلم حيث يجعل رسالته) ـ ليكون خاتم المرسلين ، و إمام السابقين الآخرين . وأنزل عليه الكتاب المبين . ليبينه للناس ، ويهديهم به إلى صراط العزيز الحميد . فبلَّغ الرسالة أحسن البلاغ ، وأدَّى الأمانة خير الأداء ، وجاهد فى الله حق جهاده ، حتى أتاه اليقين ، ورفعه الله إلى الرفيق الأعلى ، وقد ترك الناس على المحجة البيضاء ، ليلها كنهارها ، لايزيغ عنها إلا هالك ، وأكد لهم النصيحة الخالصة ـ وبالاخص قبيل وفاته ـ إذ قال « عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى . تمسكوا بها ، وعَضُّوا عليها بالنواجذ ، و إياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل بدعة ضلالة » وقد عرف صلى الله عليه وسلم العلل والأدواء التى أهلكت الأمم الماضية ، فخوفهموها أشد التخويف ، وحذرهموها أشد التحذير ، ووصف لهم الدواء الشافى من ذلك . وتلا عليهم قول ربه فى محكم كتابه (فإن تنازعتم فى شيء فردوه إلى الله والرسول ، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر . ذلك خير وأحسن تأويلاً) . وزادهم تأكيداً فقال « تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى : كتاب الله ، وسنتى » فكان الرعيل الأول من هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس ، من جميع أهل الأرض ـ عربهم وعجمهم ، يهوديهم ومجوسيهم ونصرانيهم ـ إذ كانوا بالعلم الصحيح ـ من كتاب الله ، و بيان وهدى رسوله صلى الله عليه وسلم ـ أبر الناس أقوالاً وأعمالا ، وأخلاقاً ، وأحوالا فعاش الناس فى كنفهم فى عدل ورحمة ورخاء عيش ، وأمن على الأنفس والأموال والأعراض ، ما كانوا يجدونها ، ولا بعضها ، عند أهل دينهم فى عُصُرهم الأولى . وما كان ذلك لميزة فى زمانهم ، ولا مكانهم ، ولا أنسابهم وأجسامهم ، وإنما كان : لأنهم آمنوا بالله وكتابه ورسوله صادقين ، وأخذوا طريقهم فى كل شأن من شئون

الحياة على ضوء هذا الإيمـان وهداه ، على بصيرة من ربهم ، وثقة به مؤمنين . لايصدرون ولا يردون إلا عنه ، واثقين من أن هذه الرسالة الخاتمة والمتممة لما قبلها : إنمـا تفضل بها الله ربهم لخيرهم ، وتسديد خطواتهم فى حياتهم الأولى ، ليتبوءوا أعلى مكان العزة والحياة الـكريمة ، فيصلحوا ما أفسد الناس ، ويقوِّموا ما أمال الناس ، ويأخذوا على أيدى الظالمين لأنفسهم . فيضعوهم على المحجة ، ويدفعوهم بالعلم الصحيح ، والعقيدة النقيـة ، والعمل الصالح ، والنفس الزكية والسمت الصالح ، على بصيرة : فى سبيل الحياة (قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة ، أنا ومن اتبعنى . وسبحان الله ! وما أنا من المشركين) .

ومن ثم أحياهم الله أطيب حياة وأسعدها . وكان النجاح والنصر فى كل شأن ، وأينما توجهوا حليفهم ، إذ كانوا مع الله ، فـكان الله معهم (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) .

ثم خلف من بعدهم خلوف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، أخذوا عرض هذا الأدنى ، وشغلوا به . وأخلدوا إلى أرض الأهواء والشهوات ، منسلخين من آيات ربهم ، فى أنفسهم وفى الآفاق . إذا ذُكِّروا لايذكرون . وإذا نُصحوا لا ينتصحون ، ويقولون ـ مغرورين بأسمائهم ، وصورهم ، ووراثاتهم التقليدية ـ إن الله سيغفر لنا (وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ، ألم يؤخذ عليهم ميثاق الـكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ؟ ودرسوا مافيه . والدار الآخرة خير للذين يتقون . أفلا تعقلون ، والذين يمسكون بالـكتاب وأقاموا الصلاة . إنا لانضيع أجر المصلحين) .

اللهم أصلح عقائدنا ، وقلوبنا وأعمالنا وأحوالنا . وهذب أخلاقنا . وأصلح ولاة أمورنا . وأدبنا بأدب العبد الـكريم رسولنا ، وقَوِّم إليك يارب طريقنا ، واهدنا بهدى إمام المهتدين ، عبـدك ورسولك الذى اصطفيته وعصمته ، وأرسلته رحمة للعالمين .واخترته إماماً للمهتدين ، محمد عليه منك أفضل الصلاة وأزكى السلام .

و بعد : فهذا كتاب :

الإنصاف

فى معرفة الراجح من الخلاف على مذهب الإمام المبجل أحمد بن حنبل

الذى طالما تمنى علماء الحنابلة ـ بل وغيرهم ـ من كل بلد وعصر : أن ييسر الله الوصول إليه ، بطبعه ، وتكثير نسخه وتوفيرها ، ليسهل الحصول عليه ، وتدنو ثماره من أيدى المتلهفين عليها . و إنه لجدير بلهفة أولئك الطالبين الراغبين ، وحقيق بحرص علماء الحنابلة ـ وغيرهم ـ من المتفقهين ، وجهابذتهم المحققين . فقد ضم بين دفتيه كل ماقيل فى المذهب الحنبلى من أقوال ووجوه وروايات ، وأحصاها أدق إحصـاء ، يدل على حافظة نادرة جداً ، وقوة استحضار فَذَّة . تجعله مَعْلَمَة حنبلية ، لعلها تغنى مقتنيها عن غيره من المختصرات والمطولات . فلقد سلك فيه مسلكا لم يسبق إليه . بين فيه الصحيح من المذهب ، وأطال فيه الكلام . وذكر فى كل مسـألة ما نقل فيها من الـكتب . وكلام الأصحاب ، من المتقدمين والمتأخرين ، إلا أنه قلما تعرض للدليل . لأن كل همه كان موجهاً إلى الجمع والإحصاء لـكل ما قيل فى المسألة . وهى مهمة شاقة تستوعب المجهود العظيم . فهو من الـكتب التى تبذل فيها نفائس الأموال . ولا غرو فمؤلفه هو الإمام:

علاء الدين أبى الحسن على بن سليمان المرداوى

قال أبو الفلاح عبد الحى بن العماد الحنبلى ، مترجما له فى كتابه « شذرات الذهب » (ج ٧ ص ٣٤٠) فى وفيات سنة ٨٨٥ .

وفيها : علاء الدين ، أبو الحسن على بن سليمان بن أحمد بن محمد المرداوى ،

السعدى . ثم الصالحى ، الحنبلى . الشيخ الامام ، العلامة المحقق ، المتفنن ، أعجوبة الدهر . شيخ المذهب و إمامه ، ومصححه ومنقحه ، بل شيخ الإسـلام على الاطلاق ، ومحرر العلوم بالاتفاق .

ولد سنة سبع عشرة وثمانمائة . وخرج من بلده « مردا » فى حال الشبيبة . فأقام بمدينة الخليل عليه الصلاة والسلام ، بزاوية الشيخ عمر المجرد . رحمه الله . وقرأ بها القرآن .

ثم قدم إلى دمشق . ونزل بمدرسة شيخ الإسلام أبى عمر ، بالصالحية . واشتغل بالعلم . ولاحظته العناية الربانية . واجتمع بالمشايخ . وجَدَّ فى الاشتغال وتفقه على الشيخ تقي الدين بن قندس البعلى ، شيخ الحنابلة فى وقته . فبرع ، وفضُل فى فنون من العلوم . وانتهت إليه رياسة المذهب .

و باشر نيابة الحـكم دهراً طويلا . فحسنت سيرته . وعظم أمره .

ثم فُتح عليه فى التصنيف . فصنف كتبا كثيرة فى أنواع العلوم . أعظمها « الانصاف فى معرفة الراجح من الخلاف » أربع مجلدات ضخمة . جعله على « المقنع » وهو من من كتب الإسلام .

فانه سلك فيه مسلـكا لم يسبق إليه . بين فيه الصحيح من المذهب . وأطال فيه الـكلام . وذكر فى كل مسألة مانقل فيها من الـكتب . وكلام الأصحاب .

فهو دليل على تبحر مصنفه ، وسعة علمه ، وقوة فهمه ، وكثرة اطلاعه .

ومنها « التنقيح المشبع ، فى تحرير المقنع » وهو مختصر الانصاف .

ومنها « التحرير » فى أصـول الفقه . ذكر فيه المذاهب الأربعة ، وغيرها وشرحه .

وجزء فى الأدعية والاوراد . سماه « الحصون المعدة ، الواقية من كل شدة » وتصحيح كتاب « الفروع » لابن مفلح .

وشرح الآداب . وغير ذلك .

وانتفع الناس بمصنفاته . وانتشرت فى حياته و بعد وفاته .

وكانت كتابته على الفتوى غاية . وخطه حسن .

وتنزه عن مباشرة القضـاء فى أواخر عمره . وصار قوله فى المذهب يعول عليه فى الفتوى والأحكام ، فى جميع مملـكة الإسلام .

ومن تلامذته : قاضى القضاة : بدر الدين السعدى . قاضى الديار المصرية . وغالبُ من فى المملـكة من الفقهاء ، والعلماء ، وقضاة الإسلام .

وما صحبه أحد إلا وحصل له الخير .

وكان لايتردد إلى أحد من أهل الدنيـا . ولا يتكلم فيما لا يعنيه . وكان الأكابر والأعيان يقصدونه لزيارته ، والاستفادة منه .

وحج . وزار بيت المقدس مراراً .

ومحاسنه : أكثر من أن تحصر ، وأشهر من أن تذكر .

وتوفى بصالحية دمشق يوم الجمعة ، سادس جمادى الأولى . ودفن بسفح قاسيون . قرب الروضة .

* * *

وقال العلامة المؤرخ الناقد ، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوى فى كتابه « الضوء اللامع ، لأهل القرن التاسع » (ج ٥ ص ٢٢٥ ـ ٢٢٧) .

على بن سليمان بن أحمد بن محمد ، العلاء المرداوى ، ثم الدمشقى ، الصالحى ، و يعرف بالمرداوى . شيخ المذهب .

ولد قريباً من سنة عشرين وثمانمائة بمردا ، ونشأ بها .

فحفظ القرآن ، وأخذ بها فى الفقه عن فقيهها الشهاب أحمد بن يوسف .

ثم تحول منها وهو كبير إلى دمشق . فنزل مدرسة أبى عمر . وذلك ـ فيما أظن ـ سنة ثمان وثلاثين ، فجود القرآن ، و يقال : إنه قرأه بالروايات . فالله أعلم .

وقرأ « المقنع » تصحيحاً على أبي الفرج عبد الرحمن بن إبراهيم الطرابلسى الحبنلى . وحفظ غيره ، كالألفية . وأدمن الاشتغال .

وتجرع فاقة وتقللا . ولازم التقى ابن قندس فى الفقه وأصوله ، والعربية وغيرها . حتى كان جُلُّ انتفاعه به .

وكان مما قرأه عليه بحثاً وتحقيقاً « المقنع » فى الفقه . و « مختصر الطوفى » فى الأصول . وألفية ابن مالك .

وكذا أخذ الفقه والنحو عن الزين عبد الرحمن أبى شعر ، بل سمع منه التفسير للبغوى مراراً . وقرأعليه فى سنة ثمان وثلاثين من شرح ألفية العراقى إلى « الشاذ » .

وأخذ علوم الحديث أيضاً عن ابن ناصر الدين . سمع عليه منظومته وشرحها بقراءة شيخه التقى .

والأصول أيضاً عن أبى القاسم النويرى ، حين لقيه بمكةفى سنة سبع وخمسين . فقرأ عليه قطعة من كتاب ابن مفلح فيه ، بل وسمع فى العضد عليه .

وأخذ الفرائض ، والوصايا ، والحساب عن الشمس السيلى الحنبلى ، خازن الضيائية . وانتفع به فى ذلك جداً . ولازمه فيه أكثر من عشر سنين ، بل وقرأ عليه « المقنع » فى الفقه بتمامه بحثاً .

وأخذ العربية والصرف وغيرها من أبى الروح عيسى البغدادى الفلوجى ، الحنفى ، نزيل دمشق .

والحسن بن إبراهيم الصفدى ، ثم الدمشقى ، الحنبلى الخياط وغيرها .

وقرأ البخارى وغيره على أبى عبد الله محمد بن أحمد السكركى الحنبلى .

وسمع الزين بن الطحان . والشهاب بن عبد الهادى وغيرها .

وحج مرتين . وجاور فيهما .

وحضر دروس البرهان بن مفلح ، وناب عنه

وكذا قدم بأَخَرة إلى القاهرة ، وأذن له قاضيها العز الكنانى فى سماع

الدعوى ، وأكرمه . وأخذ عنه فضلاء أصحابه باشارته ، بل وحضهم على تحصيل « الإنصاف » وغيره من تصانيفه ، وأذن لمن شاء الله منهم .

وقرأ هو حينئذ على الشمنى ، والحصنى « المختصر » .

وقرأ فى الفرائض والحساب يسيرا على الشهاب السجينى .

وحضر دروس القاضى . ونقل عنه فى بعض تصانيفه واصفاً له بشيخنا .

وتصدى – قبل ذلك و بعده – للإقراء ، والافتاء ، والتأليف ببلده وغيرها . فانتفع به الطلبة . وصار فى جماعته بالشام فضلاء .

وممن أخذ عنه فى مجاورته الثانية بمكة : قاضى الحرمين المحيوى الحسينى الفاسى ومن تصانيفه (الانصاف فى معرفة الراجح من الخلاف) .

عمله تصحيحاً للمقنع ، وتوسع فيه حتى صار أربعة مجلدات كبار . تعب فيه . واختصره فى مجلد سماه « التنقيح المشبع ، فى تخريج أحكام المقنع » و « الدر المنتقى والجوهر المجموع فى معرفة الراجح من الخلاف المطلق فى الفروع » لابن مفلح فى مجلد ضخم . بل اختصر « الفروع » مع زيادة عليها فى مجلد كبير . و « تحرير المنقول فى تهذيب – أو تمهيد – علم الأصول » أى أصول الفقه فى مجلد لطيف . وشرحه . وسماه « التحبير فى شرح التحرير » فى مجلدين . وشرح قطعة من مختصر الطوفى فيه .

وكذا له فهرست القواعد الأصولية فى كراسة . و « الكنوز – أو الحصون – المعدة ، الواقية من كل شدة » فى عمل اليوم والليلة وقال : إنه جمع فيه قريباً من ستمائةحديث . منها الأحاديث الواردة فى اسم الله الأعظم .

والأدعية المطلقة المأثورة . قال : إنه جمع منها فوق مائة حديث .

و « المنهل العذب الغزير ، فى مولد الهادى البشير النذير » .

وأعانه على تصانيفه فى المذهب : ما اجتمع عنده من الكتب مما لعله انفرد به ملكا ووقفا

وكان فقيهاً حافظاً لفروع المذهب . مشاركا فى الأصول ، بارعاً فى الكتابة بالنسبة لغيرها . متأخراً فى المناظرة والمباحثة . ووفور الذكاء ، والتفنن عن رفيقه الجراعى . مديماً للاشتغال والإشغال . مذكورا بتعفف ، وورع ، و إيثار فى الأحيان للطلبة . متنزها عن الدخول فى كثير من القضايا ، بل ربما يروم الترك أصلا . فلا يُمَكِّنه القاضى ، متواضعاً منصفاً . لا يأنف ممن يبين له الصواب ــ كما بسطته فى محل آخر ــ وقد نزح عن بلده قاصداً الديار المصرية ، إجابة لمن حَسَّنه له ، إما ليكون قاضياً ، أو منا كدا للقاضى فى الجملة ، أو لنشر المذهب و إحيائه . فعاق عنه المقدور . فإنه حصل له مرض وهو بجب يوسف . وعرج من أجله إلى صَفَد . فتعلل بها يسيراً . وعاد إلى بلده . فنصل منه . وأعرض حينئذ عن النيابة بالكلية . وذلك قبل موت البرهان بن مفلح بيسير ، إما لتعلق أمله بأرفع منها ، أو لغير ذلك .

وعلى كل حال : فقد استُعمِل بعد موته ممن لعله فهم عنه رغبة ، حتى كتب بالثناء على النجم ولد البرهان ، بحيث استقر بعد أبيه . ولعل قصده كان صالحاً .

وعلى كل حال : فقد حاز رياسة المذهب . وراج فيه أمره مُديدةً . وذكر بالانفراد . خصوصاً بعد موت الجراعى . ثم القاضى .

واستمر على ذلك حتى مات فى جمادى الأولى سنة خمس وثمانين بالصالحية . ودفن بالروضة . رحمه الله و إيانا .

هذا ، وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا للسداد والمعونة على ما يحب و يرضى . وصلى الله عليه وسلم و بارك على خاتم المرسلين محمد وعلى آله أجمعين .

غرة الحجة سنة ١٣٧٤
٢١ يولية سنة ١٩٥٥

محمد حامد الفقى